

المزهر في علوم اللغة وأنواعها

هذا القريض - كما قال المخزومي لعبد الملك بن مروان وقد لقيه في طريق الحج بعد ما أنكره وكرهه فقال : بئست التحية من ابن العم على الذئبي - وهذا لعمري بئست تحية الغريب من القاطنين ! ولؤمّت هديّة الوافد من المقيمين ! وقد كان حقّ الغريب أن يكثر قليله ويسدّ زيفه ويثبّت زلّله ويُعَار من معالي الصفات ما يؤنس غُرْبته ويصدق مخيلته ويعلم أن قد حلّ على أشباه القعقاع بن شور الذين لا يشقّى بهم جليس ولا يذمّ دخلتهم أنيس ولا يزورهم نازح الدار إلا سلا عن وطنه ولا يسكن إلى قريبهم شاكٍ لذبّوة الخطّ إلا صلح ما بينه وبين زمّنه إلى أن يبدوا عن تباينه ويجثوا عما وراء ظهره يأخذوا بعادة أهل الأثر ويحملوا نفوسهم معه على ما في الجواب من الغرر . على أن هذا الطارئ عليهم رجلٌ كان أرّبه من العلم ما فيه حظّ زفّسه وتهذيب خلائقه والاقتداء بهذه الآداب الزاكية على تقويم أوده والاستعانة بقليل هذه الحكم المصلحة على إصلاح فكرهم خدوماً بالعلم لا خادماً ومتبوعاً بمُلّاخ غرائب الآداب لا نابعاً وعلى أنه لو كان قد احتبى للجدال وركب للنزال وتحديّ بعلمه تحديّ المعجز وتعرّض لكافّة العلماء تعرّض الواثق المتحرّز لما كان في غروب كلماته من حوشيّ اللغة عن فهمه ما يدل على قصر باعه وقلة متاعه .

ويا عجباً للفراغ ! كيف سوّغ لهذا المغتّر أن يجارى بحلّاق درعه تقسّم أفكاره يوكيف أنساه اجتماع شمهله بعد دياره يوكيف أذهله حضور أحبّته عن مغيّب أفلاذ كبديوكيف طرقت ناظره سكرة الخطّ عن تضور ما يجنّ خلّديوكيف لم يدر ما لي من ألحاطٍ مقسّمة وطنون مَرَجّمة لم والتفات إلى ولدٍ ينتهب الشوق إليه تصبّري وينبّه الإشفاق عليه حدريوكيف لم يخطر بباله أني قريبٌ عهْدٍ بمحلٍ عزٍّ وثروة كانا أوحشاني من الأكفاء وخطاني بين الأعداء والأصدقاء .

وقد تكلفت الإجابة عما تضمّنته الأبيات انقياداً لمُرادك ومُقتسراً رأيي على إسعادك أجرّ أقلامي جرّاً وهنّ ثواكل وأنبّه قرائحي وهنّ في غمرات الهموم ذواهل توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

قال هذا السائل : إن المسؤول درؤك لتلك الفتوة يومستحقّ بها الرتبة العليا . فقال شيخ من شيوخنا - عزفته لنا الأيام عن كل فات فوفّات وزادت وعوّضتّناه من كل مُخْتَرَم فأحسنّت وأفادت وكان لحظّ الأبيات قبلي ولأعم مشكله في التعجب منها مشكلي : أن (دروكاً) هاهنا لا يجوز لأن فعولاً لا يكون من أفعال

